مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

العدد الرابع والعشرون

1375 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2007 مسيحي

تصدر عن
كلية الدعوة الإسلامية
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

الجهود النقدية لابن حجر العسقلاني

د. حسن عبد القادر الشريف
كلية الآداب - جامعة سبها

تمهيد:

كان الظن أن يجد الباحث عند أحمد بن حجر العسقلاني ـ وهو الأديب الشاعر ـ قسطاً لا بأس به من النقد الأدبي في مؤلفاته، لكن الباحث وعلى خلاف ما توقع لم يجد للعسقلاني إلا القليل من الوقفات النقدية في عصره عصر المماليك، وهذه الوقفات موزعة على صفحات سفره الضخم «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» ومرد ذلك في إدراك الباحث يعود إلى طبيعة عمل العسقلاني في كتابه، فغاية الرجل كانت التعريف بأعيان المائة الثامنة وإثبات نماذج من عطائهم. وبيان ما وصل إليه عنهم من معلومات.

وواضح أن من كان عمله كهذا لا يهتم كثيراً بتقويم النتاج الأدبي لأعلامه الدين ترجم لم في هذا السفر.

إن الباحث يظلم العسقلاني لو لامه، فهو لم يقصد في كتابه إلى النقد الأدبي فالكتاب ليس كتاب نقد يعنى بقضايا النقد لذاتها، كل ما هنالك أنه جعل كتابه كتاب تراجم لأعلام القرن الثامن الهجري وهذا واضح في مقدمة الكتاب.

ولكن هذا لا يعني أن العسقلاني لم يترك للدارسين آراء نقدية على الرغم من أنه ليس ناقداً متخصصاً في النقد الأدبي، فقد واكب العسقلاني اختياراته الأدبية في تراجمه ببعض الأحكام النقدية التي سيتعرض لها الباحث في حينها مستشهداً بنماذج منها، ومهما تكن قيمة آرائه النقدية فهي تمثل مرحلة في تطور النقد الأدبي، لا بد من رصد خصائصها واستقصاء صفاتها.

جهوده النقدية:

لقد كان للعسقلاني في عصره وجود واضح من الناحية الأدبية عبر ديوانه الشعري، كما أن للعسقلاني دوراً نقدياً فيما عرض عليه من آثار أدبية ليقول فيها كلمته، حيث إنه واحد من نقاد عصره، إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق، والواقع أن النقد الأدبي على حد تعبير محمد مندور في كتابه (ليس بالمهمة الهينة ولا هو في مقدور كل إنسان إذ لا بد لمن يريد أن يحاوله أن يكون غنياً بتجارب الحياة)[1]، ويرى الباحث أن العسقلاني غني في تجربته الذاتية في الشعر، واسع الأفق الثقافي، رفيع الذوق، عميق الفهم، مؤهل لخوض غمار النقد الأدبي.

وقصة «التائيات» لم تنته بعد، ولم يفرغ منها النقد الأدبي جملة، فقد طلب ابن حجة من العسقلاني أن يحكم بين تائيته التي قالها في مدح المقر

(1) النقد المنهجي عند العرب. ص 106. دار النهضة. مصر..

الأشرف محمد بن مزهر وتائية ابن نباتة في مدح كمال الدين الزملكاني التي مطلعها:

قضى وما قضيت منكم لبانات متيم عبثت فيه الصبابات

مافاض من جفنه يوم الرحيل دم إلا وفي قلبه منكم جراحات

وتائيه برهان الدين القيراطي في مدح تاج الدين السبكي صاحب الطبقات التي مطلعها:

ما لابتداء صباباتي نهايات يا غاية ما تعشقي فيه غايات

ويا غزالاً لنا في لحظ ناظره أسد ومن هدبه للأسد غابات

ثم سجل ابن حجر نص حكم العسقلاني في هذه القضية الأدبية، وها هو ذا كما سجله: «لله الأمر من قبل ومن بعد، الحكم بين النظراء إنما يحسن فيمن يماثلهم فيما به يرتفع الحكم، وفي إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة من الظلم، ولا يرتاب لبيب أن كلاً من الثلاثة رأس هذا الفن في زمانه، وأنه لا يوازنه أحد من أقرانه:

وثلاثة كثلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب، وإجابة الداعي، ولا سيما ممن ظنه أهل هذا الفن كفؤاً لما دعي إليه أمر منتدب، ومرجع الحكم في هذه القضية إلى الذوق السليم فأمكن القول، إن لم أقل وجب فأقول مستعيناً بالله متكلاً عليه، ملتجئاً في كل الأمور إليه:

الذي تبنى عليه القواعد ويشهد به الذوق السليم الذي هو في هذا الفن أعدل شاهد، أن الثالثة أرجح وزناً من الثانية، ولولا حرمة الكمال والحياة من الجمال لقلت الثانية في الرتبة الأخيرة تالية، لأن الأولى وإن كانت من الثانية أكثر انسجاماً، والثانية وإن فضلت عن الأولى في الدقات الأدبية ابتداءً وختاماً فالثالثة قد جمعت بين المعنيين وفازت بالحسنيين، ونزلت في كل وجه من الأدب منزلة العين، وقال لسان فحوليتها عند لين الكلام من غيرها ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ

حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وقد أتت بما غض من الأزاهر النباتية والجواهر القيراطية وما فاق مجموعه كل فريد وراق مسجوعه كل مجيد، حتى قال من شهد مثلي ببراعته وطرب لصرير يراعته:

أقضى نهاية وصفي فيه معرفتي بالعجز مني عن إدراك معرفته[2]

ومن الآراء النقدية للعسقلاني ما نقله صاحب كشف الظنون عن ظهر نسخة من كتاب (التقديم) لابن حجة الحموى شهادة العسقلاني بخطه كتب فيها: «وهو مجموع أدب قل أن يوجد في غيره ـ وهل مقتنيه يستغني عن غيره؟ ـ من الكتب الأدبية ولو لم يكن فيه إلا جودة الشواهد لكل نوع من الأنواع ما امتاز به من الاستكثار من إيراد نوادر العصرين فإن مصنفه مرتفع عن كلفة العارية وهذه وحدها مقصد لكل حاذق»[3].

كما وجد الباحث نمادج للعسقلاني من نقده للشعر في كتابه «الإصابة» فقد ورد في ترجمة معدان بن جواس نقد العسقلاني لبيت أنشده معدان يقول فيه:

تداركت أخوالي من الموت بعدما تشاءوا ودقوا بينهم عطر منشم

ذكره ابن الكلبي، وقال: تشاءوا بفتح الهمزة أي: تسارعوا. ومنشم بنون ومعجمة كانت عطارة.

قلت: وأخذ هذا البيت من قصيدة زهير بن أبي سلمى التي مدح بها هرم ابن سنان وأخاه، قال فيها:

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[4]

وفي هذا الحكم النقدي من العسقلاني إشارة إلى قضية السرقات الأدبية،

---

(2) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. د. محمود رزق سليم. ص 353 ـ 354.
(3) كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون. تأليف مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة.
(4) الإصابة في تمييز الصحابة. للعسقلاني. ج10. ص 37.

فقد استعمل في نقده كلمة (أخذ هذا البيت) بدلاً من (سرق هذا البيت).

ومن الآراء النقدية للعسقلاني قوله في ترجمة مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن سلمة المعروف بالأشتر، قال المرزباني في معجم الشعراء: كان سبب تلقبه الأشتر أنه ضربه رجل يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحاً إلى عينيه فشترتها، وهو القائل:

بقيت وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشن على ابن هند غارة لم تخل يوماً من ذهاب نفوس

قال بعض المتأخرين من أهل الأدب: لو قال: إن لم أشن على ابن حرب غارة كان أنسب، قلت: كلا، بل بينهما فرق كبير، نعم هو أنسب من جهة مراعاة النظير، وبطرائق المتأخرين، وأما فحول الشعراء فإنهم لا يعتنون بذلك، بل نسبه خصمه إلى أمه أبلغ في نكايته[5].

إن هذه الروايات السابقة تنم عما توفر للعسقلاني من موهبة في النقد، تعهدها بالمران والإغناء والصقل، باطلاعه الواسع على تراث العرب الأدبي الغزير، وما حفظه من نصوصه الرفيعة، فكانت له خير مورد يمتح منه ويعود إليه ليؤصل به أسلوبه في النقد، ومن الطبيعي أن تكون ملكة النقد متوفرة عند من عايش القريض والكتابة وعاناهما قارئاً وقائلاً:

الذاتية والموضوعية في نقده:

ترمي هذه الدراية إلى استجلاء طبيعة التناول النقدي للنص الأدبي عند العسقلاني من حيث الذاتية والموضوعية وينبغي للباحث أولاً أن يظهر الفرق بينهما، فالذاتية: مشتقة من الذات التي هي جذورها، بمعنى أن المرء إذ يقف لدى نص ينطلق في الإعراب عن موقفه من ذاته هو، مما يحس به ويشعر من

(5) الإصابة في تمييز الصحابة. ج 10. القسم الثالث. ص 4 ـ 0.5

جمال أو قبح، فيستحسن تبعاً لإحساسه الشخصي أو يستقبح، لا يهمه الآخرون غير ما يتركه النص في نفسه من أثر أو انطباع، وما يثيره فيه من انفعال»[6].

والموضوعية: نقيض الذاتية، وهي: أن يزاول الناقد مهمته بتجرد وكأنه غريب عن النص، فلا دخل لإحساساته الشخصية، وما يحبه هو في النص وما لا يحبه»[7].

الفرق كبير بين الذاتية والموضوعية (فالأولى تخلو من المقياس المشترك فيحكم الناقد دون الرجوع إلى صورة عامة للجودة أو الرداءة.

يستجيد ما يستجيد ويسقط ما يسقط معتمداً في ذلك على ذوقه وحسب»[8].

لم يقتصر العسقلاني في تراجمه على نقل الأخبار وتدوين النصوص وحسب، بل كان يعرض للمادة الأدبية التي ترد في تراجمه ناقداً إياها ـ ليس بشكل مطرد ـ فقد تكون هذه النصوص الأدبية غير مصحوبة بالنقد، وهي السمة الغالبة في كتابه «الدرر الكامنة» ربما يريد العسقلاني ترك المجال رحباً أمام القارىء لينبه ويعمل فكره، ويحكم بالتالي ذوقه.

ويسوق الباحث نماذج من النوص الأدبية التي لم يصاحبها العسقلاني بالنقد:

1 ـ قوله في ترجمة إبراهيم بن عمر بن العباس: وله شعر، ومنه:

لـمـا أعـان الله جـل بـلـطـفـه لم تسبني بجمالها البيضاء[9]

---

(6) مقدمة في النقد الأدبي. علي جواد طاهر. ص 341. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط1. 1977م..

(7) المصدر نفسه. ص341.

(8) جهود اللغويين البلاغية والنقدية في القرن الثالث الهجري. عبد الواحد حسن الشيخ. ص 24. دار المعرفة الجامعية. الإسكندري. ط1. 1990م.

(9) الدرر الكامنة ج1، ص51، ترجمة: 130.

2 ـ قوله في ترجمة أحمد بن سالم بن محمود الكندي: ومن شعره قصيدة أولها:

ذابت عليك حشاشة المشتاق فانعم عليّ بنظرة وتلاق[10]

3 ـ قوله في ترجمة أحمد بن سليمان الصقلي: وله نظم فمنه:

يا غفلة شاملة للقوم كأنما يرونها في النوم
ميت غد يحمل ميت اليوم[11]

4 ـ قوله في ترجمة أيمن أبو البركات: ومنه شعره:

فررت من الدنيا إلى ساكن الحمى فرار محب عائد لحبيبه
لجأت إلى هذا الجناب وإنما لجأت إلى سامي العماد رحيبه[12]

5 ـ قوله في ترجمة شيرزاد بن ممدود بن شيرزاد: قال البرزالي في تاريخه: كان شيخاً حسن الهيئة وذكره في معجمه وقال أنشدني لنفسه:

ومن يقصد الأمر الذي ليس ممكناً ويطمع أن يمسي به وهو ظافر
كباحث صخر يبتغي فيه حاجة أناملة تدمى وتحفى الأظافر[13]

6 ـ قوله في ترجمة عبد الرحن بن خضر: ومن نظمه:

حمام الأراك أراك الهوى شجوناً غدوت لها مستكينا
فلولا النوى ما ألفت النواح ولولا الشجا ما ألفت الشجونا[14]

7 ـ وقوله في ترجمة عثمان بن أيوب بن مجاهد، ومن شعره قصيدة أولها:

ألا في سبيل الخير ما أنا صانع بقلب له من وشكة البين صادع

---

(10) الدرر الكامنة ج1، ص134، ترجمة: 373.
(11) الدرر الكامنة ج1، ص139، ترجمة: 395.
(12) الدرر الكامنة ج1، ص431، ترجمة: 1134.
(13) الدرر الكامنة ج2، ص197، تر: 1951.
(14) الدرر الكامنة ج2، ص328، تر 2296.

هل الدهر يوماً بعد تفريق شملنا بذاك الحمى النجدي للشمل جامع[15]

8 ـ قوله في ترجمة عمر بن حسن بن عرم بن حبيب الدمشقي، ومن شعره:

كتمت الهوى صوناً لكم فوشت به مدامع لا تدري بمن أنا مغرم[16]

9 ـ قوله في ترجمة عمر بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي: ومن نظمه:

كأن وجه النهر إذ حفت به أشجاره فصافحته الأغصن

مرآة غيد قد وقفن حولها ينظرن فيها أيهن أحسن[17]

10 ـ قوله في ترجمة محمد بن أحمد بن يوسف الكلبي: ومن شعره:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد وإن مرادي صحة وفراغ

لأبلغ في علم الشريعة مبلغا يكون به لي في الحياة بلاغ

ففي مثل هذا فليتنافس أولو النهى وحسبي من الدنيا الغرور بلاغ

فما العيش إلا في نعيم مؤبد به العيش رغد والشراب يساغ[18]

11 ـ قوله في ترجمة محمد بن جعفر بن تقي الدين الشافعي: ولتقي الدين لغز في العين:

ومحبوبة عند المنام ضممتها أحس بها لكنني ما نظرتها

لذيذة ضم لا أطيق فراقها ورب ليال في هواها سهرتها[19]

12 ـ قوله في ترجمة محمد بن علوان الصنعاني: قال البرهان: أنشدني من لفظه لنفسه قصيدة نبوية أولها:

أهدت نسيم الصبا لطيبها خبرا عن أهل طيبة لما أن سرت سحرا

---

(15) الدرر الكامنة ج2، ص438، تر 2572.

(16) الدرر الكامنة ج3، ص158، تر 375.

(17) الدرر الكامنة ج3، ص189، تر 453.

(18) الدرر الكامنة ج3، ص356، تر 942.

(19) الدرر الكامنة ج3، ص416، تر: 1104.

فاستنشق الصب فيها نفحة فغدا يميل سكرا ولا والله ما سكرا[20]

13 ـ قوله في ترجمة محمد بن محمد الفرجوطي: اشتغل في الفقه والقراءات والآداب وهو القائل:

وشاعر يزعم من غرة وفرظ جهل أنه يشعر

وينظم الشعر ولكنه يحدث من فيه ولا يشعر[21]

14 ـ قوله في ترجمة محمد فخر الدين بن البزار الاسكندراني: وله نظم ومنه:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذي هو فيه

فلا خير فيمن لا يرى عيب نفسه ويبصر في العيب الذي بأخيه[22]

فالملاحظ أن هذه النصوص الأدبية ـ وغيرها كثير ـ لم يتعرض لها العسقلاني بالنقد، مكتفياً بتدوينها ضمن اختياراته الأدبية لتراجمه.

أما عن منهج العسقلاني في نقده للنصوص الأدبية، فهو منهج انطباعي يعتمد على الذوق غالباً، حيث تتسم الأحكام الصادرة عنه بالعموم والافتقار إلى التبرير العلمي وعدم الاتكاء على نظرية نقدية واضحة المعالم.

وإذا كان الناقد يعتمد على ذوقه بالدرجة الأولى فإنه لا غنى له عن معرفة أصول النقد الأدبي لتساعده على تحليل النص وتقويمه ونقده. ولا يشك الباحث في أن العسقلاني مدرك لأهمية الإلمام بأصول النقد لمن يقوم بعملية النقد البناء، ذلك أن الأدب العربي القديم ما عاش حتى اليوم إلا بجهد رواته ونقاده.

ولا يعني هذا أن الأحكام النقدية الصادرة عن العسقلاني أنها خاطئة بالضرورة، فقد تكون هذه الآراء والأحكام على جانب كبير من الصحة

---

(20) الدرر الكامنة ج4، ص51، تر 148.

(21) الدرر الكامنة ج4، ص249، تر 675.

(22) الدرر الكامنة ج4، ص320، تر 873.

والصواب، ولكن ينقصها فقط أن توضع في صيغتها العلمية، والتبرير الموضوعي المنهجي لها. والواقع أن كثيراً من القواعد والنظريات النقدية بدأت آراء انطباعية أصدرها علماء أو نقاد على جانب من رهافة الذوق ودربته ثم توفر على هذه الآراء من اللاحقين من بلورها ووضعها في صيغتها العلمية النظرية.

إذن فأحكام العسقلاني النقدية قد تكون صائبة في ميزان النقد، ولكن صياغتها تلك وعدم تبريرها هي مظهر الانطباعية في هذه الأحكام. ويسوق الباحث نصوصاً أدبية ضمن التراجم الواردة في «الدرر الكامنة» تعامل معها العسقلاني وفق المنهج الانطباعي في النقد وفيما يلي نماذج من نقده القائم على الذوق:

1 ـ قوله في ترجمة إبراهيم بن عبد الله الغرناطي: وله شعر عذب فمنه:

أتيناك بالفقر لا بالغنى وأنت الذي لم تزل محسنا

وعودتنا كل فضل عسى تديم الذي منك عودتنا[23]

2 ـ قوله في ترجمة أحمد بن يحيى التلمساني: ومن محاسن مقاطيعه:

نطمي علا وأصبحت ألفاظه متنمقه

فكل بيت قلته في سطح داري طبقه[24].

3 ـ قوله في ترجمة إسماعيل بن هارون: كان فاضلاً حسن النظم فمنه:

قل لظباء الكثب رفقاً على المكتئب

رفقاً لمن بلى بكم شيخاً وكهلاً وصبي[25]

4 ـ قوله في ترجمة أبي بكر بن محمد بن سليمان: وله نظم حسن فمنه:

---

(23) الدرر الكامنة ج1، ص29، تر: 71.

(24) الدرر الكامنة ج1، ص330، تر 826.

(25) الدرر الكامنة ج1، ص383، تر 969.

يا سيداً حسنت مناقب فضله فعلت بما فعلت على الآفاق

حاشاك تكسر قلب عبد لم تزل توليه حسن صنائع الإشفاق[26]

5 ـ قوله في ترجمة الحسن بن علي بن شناء الزغاري: وتعانى النظم فبرع فيه، وقال في مليح طلع على فمه حب:

يا فم المعشوق سبحا ن الذي زادك زينا

قد تحليت بدر فتحببت إلينا[27]

6 ـ قوله في ترجمة سعد الله بن سعد الحسيني: وتعانى الأدب فنظم الشعر الوسط، ومن شعره:

ورب سكوت دونه النطق ضامن بلوغ المنى لم يخش سمع المراقب

إذا أنت خاطبت الذكي إشارة فإن المبادي عنه كالعواقب[28]

7 ـ قوله في ترجمة عبد الرحمن بن عمر بن الحسن: ونظم الشعر الحسن فمنه:

حبست جفني على الأرق نغمات الورق في الورق

وانعطاف الغصن صيرني واختلاف النور في نسق

هائماً لم أدر ما فعلت يد هذا البين بالأفق[29]

8 ـ قوله في ترجمة عبد العزيز بن سرايا: ومن محاسن شعره:

إذا لم أبرقع بالحيا وجه عفتي فلا أشبهته راحتي في التكرم

ولا أنا ممن يكسر الجفن في الوغى إذا أنا لم أغضضه عن فعل محرم[30]

---

(26) الدرر الكامنة ج1، ص458، تر 1232.

(27) الدرر الكامنة ج2، ص22 ـ 23، تر 1529.

(28) الدرر الكامنة ج2، ص132، تر 1806.

(29) الدرر الكامنة ج2، ص338، تر 2333.

(30) الدرر الكامنة ج2، ص369 ـ 370، تر 2430.

9 ـ قوله في ترجمة علي بن الحسين بن القاسم: وكان له نظم حسن فمنه قصيدة نبوية أولها:

دعاها تواصل سيها بسراها ولا تردعاها فالغرام دعاها[31]

10 ـ قوله في ترجمة علي بن محمد بن مفرج الأنصاري: وكان به نظم حسن فمنه فيمن على أنفه خال:

إن الذي برأ الحواجب صاغها نونين في وجه الحبيب بلطفه
فتنازع النونان نقطة حسنه فأقرها ملك الجمال بأنفه[32]

11 ـ قوله في ترجمة محمد بن أبي طالب الأنصاري: وله شعر وهو لطيف:

نظر الهلال إليه أول ليلة فرآه أحسن منظر فتزيدا
ورآه أحسن منه بدراً فهو من غم يذوب ويضمحل كما بدا[33]

13 ـ قوله في ترجمة محمد بن علي بن يحيى الغرناطي: وله شعر جيد، ومن نظمه قصيدة نبوية أولها:

أأخاف من ذنب وأنت شفيعي وأخاف من جدب وأنت ربيعي[34]

15 ـ قوله في ترجمة محمد بن فضل الله بن أبي نصر سديد الدين: ونظم الشعر الرقيق الظريف، ومن نظمه:

إذا حملت طيب الشذى نسمة الصبا فذاك سلامي والنسيم فمن رسلي
وإن طلعت شمس النهار ذكرتكم بصالحة والمثل يذكر بالمثل[35]

16 ـ قوله في ترجمة محمد بن محمد بن إبراهيم بن خلف بن سوار: ومن

---

(31) الدرر الكامنة ج3، ص45، تر: 100.
(32) الدرر الكامنة ج3، ص315، تر: 844.
(33) الدرر الكامنة ج3، ص458، تر: 1234.
(34) الدرر الكامنة ج4، ص97، تر: 257.
(35) الدرر الكامنة ج4، ص136 تر: 359.

نظمه وهو في غاية الإجادة خاطب شخصاً معتذراً عن جلوسه مستدبره:

إن كنت أبصرت فلا أبصرت بصيرتي في الحق برهانها

لا غرو أني لم أشاهدكم فالعين لا تبصر إنسانها[36]

17 ـ قوله في ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك: وله شعر حسن فمنه:

وليت ولاية أحسنت فيها لتعلم أنها شرف بقدرك

وكم والٍ أساء فقيل فيه دني القدر ليس لها بمدرك[37]

فكل هذه الأحكام وما أشبهها صور من ذلك المنهج الانطباعي في آراء العسقلاني، ولا يعني هذا أن العسقلاني كان ناقداً انطباعياً فحسب، فهو بم يكن يلتزم هذا المنهج دائماً، وإنما كانت تتناثر في كتابه الصخم ملامح من النقد الموضوعي، حيث يقدم تبريراً لحكمه على النص الأدبي، وفيما يلي نماذج من نقده لنتاج تراجمه:

1 ـ قوله في نقد شعر أحمد بن محمد بن إسماعيل: وكان ينظم الشعر بلا إعراب ولا تصور معنى، ومن عنوانه:

أيها المعرض لا عن سببا أصلحك الله وصالي الأربا[38]

2 ـ قوله في نقد شعر أحمد بن محمد القيسي، كان شاعراً فحلاً يستعمل اللغة والغريب، فمنه في الحكمة:

ليس حلم الضعيف حلم ولكن حلم من لو يشاء صال اقتدارا

من تغاضى عن السفيه بحلم أصبح الناس دونه أنصاراً

من يزوج كريمة الهمة العلـ ـيا علوا فقد أجاد الخيارا

(36) الدرر الكامنة ج4، ص156، تر: 414.

(37) الدرر الكامنة ج4، ص195، تر: 522.

(38) الدرر الكامنة ج1، ص256، تر: 655.

ستريه لدى الولاد بنيها العـ ـلم والحلم والأناة كبارا[39]

3 ـ قوله في نقد شعر أحمد بن يوسف بن يعقوب الطيبي: ومن شعره القصيدة الطنانة التي اقتبس فيها أكثر سورة مريم أولها:

لست أنسى الأحباب ما دمت حياً إذا نووا للنوى مكاناً قصيا
وتلوا آية الدموع فخروا خيفة البين سجداً وبكيا
وبذكراهم تسح دموعي كلما اشتقت بكرة وعشيا
وأناجي الإله من فرط حزني كمناجاة عبده زكريا
واختفى نورهم فناديت ربي في ظلام الدجى نداء خفيا
وهن العظم بالبعاد فهب لي رب بالقرب من لدنك وليا
واستجب في الهوى دعاني فإني لم أكن بالدعاء منك شقيا
قد فرى قلبي الفراق وحقا كان يوم الفراق شيئاً فريا
ليتني مت قبل هذا وإني كنت نسياً يوم النوى منسيا[40]

قال العسقلاني معقباً على القصيدة: وهي طويلة نحو من ثلاثين بيتاً على هذا المهيع.

4 ـ قوله في نقد شعر أبي بكر بن محمد بن سليمان الحلبي: وله ومعناه مطروق إلا أنه أعجبني لانسجامه:

بعثت رسولاً للحبيب لعله يبرهن عن وجدي له ويترجم
فلما رآه حار من فرط حزنه فما عاد إلا وهو فيه متيم[41]

5 ـ قوله في نقد منظومة عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان: ونظم قصيدة على

(39) الدرر الكامنة ج1، ص258، تر: 663.
(40) الدرر الكامنة ج1، ص343، تر: 850.
(41) الدرر الكامنة ج1، ص464، تر: 1245.

قافية الراء من بحر الطويل ألف بيت ضمنها غرائب المسائل في مذهب الحنفية، . . . وهي نظم جيد متمكن[42].

6 ـ قوله في نقد شعر عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله: وكانت له قدرة على النظم والنثر إلا أنه ليس له غوص على المعاني. . . ومن نظمه:

تجنب أن تذم بك الليالي وحاول أن يذم لك الزمان

ولا تحفل إذا كملت ذاتا أصبت العز أم حصل الهوان[43]

7 ـ قوله في نقد شعر علي بن الحسين بن القاسم: وشعره أكثر انسجاماً وأقل تكلفاً من شعر الصفدي[44].

8 ـ قوله في نقد نظم محمد بن أحمد بن بصخان شمس الدين: وكان له نظم نازل قلق إلى الغاية كقوله:

ارحموا معذباً حين يبكي فقد فقد إلفه وقلبه من لهيب وقد وقد[45]

9 ـ قوله في نقد شعر محمد بن عمر بن مكي: ومن شعره وهو تخيل لطيف:

كأنما البدر خلال السما من فوق غيم ليس بالكالي

طراز تبر في قبا أزرق من تحته فروة سنجاب[46]

إن شاعرية العسقلاني ساعدته على النقد، وإدراك ما في النص من إبداع، فهو يعتمد على ذوقه المهذب، وثقافته الواسعة، متعدد الأوزان يتجلى من خلاله شأن العسقلاني في النظم وبراعته، فعلى هذه الأسس أقام نقده وبنى تذوقه للشعر

(42) الدرر الكامنة ج2، ص424، تر: 2540.
(43) الدرر الكامنة ج2، ص326، تر: 2263.
(44) الدرر الكامنة ج3، ص45، تر: 100.
(45) الدرر الكامنة ج3، ص300، تر: 832.
(46) الدرر الكامنة ج4، ص121، تر: 318.

علاوة على مقاييس نقدية أخرى سيذكرها الباحث لاحقاً، وفوق ذلك كله فإن العسقلاني ناقد يتحرى الصدق والنزاهة. ويبغض التسلط على النص الأدبي.

وعلى كل لم يكن النقد الأدبي عند العسقلاني ذاتياً محضاً، بل كان موضوعياً كذلك، إلا أن الناحية الذاتية فيه كانت هي الغالبة، على أن موضوعيته كانت موضوعية مشوبة بشيء من الغموض والإبهام، إذ لم يظهر فيها ذكر العلل والأسباب إلا في أقلها، فعندما يستعمل العسقلاني في نقده العبارات الآتية: (وله نظم حسن، وله شعر عذب، وله القصيدة الطنانة، وقال الشعر الجيد، وله مدائح فائقة، له شعر رائق، ومن محاسن شعره، وله نظم نازل، وله شعر مقبول، وله قصيدة لا نظير لها، لطيف النظم) فهو لم يشرح بوضوح مراده من هذه الأحكام، ولكن الباحث يقدر أن هذا النقد الذاتي من العسقلاني ربما انبنى قبل صدوره على مقاييس موضوعية لم يصرح بها العسقلاني أو معتملة في نفسه، ولكن هذا التقدير من الباحث لا يخرج بنقد العسقلاني عن طبيعته الذاتية الغالبة على نقده.

ولا يخفى أن للذاتية والموضوعية محاسن ومساوىء (فمن محاسن الذاتية أنها عنصر طبيعي جداً في العملية التي يزاول فيها الناقد أدباً حياً فيه العاطفة والخيال والفكرة، والصورة الجميلة، بل الواجب أن يحس بهذه الأشياء، وأن يتأثر، فإن ذلك يساعده على استكمال مهمته، ولكن الخطر يكمن في طغيان إحساسه الشخصي على ما سواه.

ومن محاسن الموضوعية أنها تحد من طغيان الإحساس الشخصي، وتجعل المرء يفكر مرتين قبل أن يقول كلمته، فهي رقيب على النقاد، تحول دون التسرع والتناقض، وتحمله على أن يوسع أفقه، فينظر في النص ملياً.

ولكن الموضوعية يصعب تحقيقها لأنها إنما وضعت في الأصل لأشياء مادية، أو شبه مادية خارجة عن الأدب، وعالم الإحساس والعواطف والأخيلة، فكأنك إذ تشترطها تحكم الأشياء ما ليس من طبيعتها، وتنقل إلى الأدب ما صلح

لميدان آخر، إن المادة الكيماوية جامدة، والنص الأدبي حي، ولو نفذها امرؤ بالمعنى الحرفي لما كان لنقده طعم)[47].

وكيفما كان الأمر فالنقد عند العسقلاني في ذاتيته وموضوعيته التي وصف بها ليس إلا ملاحظات وبذوراً أثمرت فيما بعد النقد المنهجي السليم (ذلك النقد الذي استحق أن يسمى علماً من العلوم الإنسانية الأدبية)[48].

ومن يتصفح النقد الذاتي التأثري لدى العسقلاني في أغلب أحكامه على اختياراته الأدبية يجد أن الأحكام الذوقية لم تكن بعيدة عن تلك الأحكام والنظرات المنهجية التي اصطنعها النحويون والبلاغيون والكتاب والنقاد من العرب وغير العرب ـ فيما بعد ـ لأن هؤلاء احتكموا في النهاية إلى ما قالته العرب وما أصدرته من أحكام.

يقول الدكتور عبد الواحد حسن الشيخ في كتابه: «ومن يقرأ كتب الأدب على اختلافها سوف يجد مادة نقدية وفيرة، كان النقد فيها ذوقياً، ثم تقدم خطوة فكشف عن بعض العيوب وعللها ثم استخلص النصائح وقدمها للكتاب والشعراء»[49].

الاستشهاد برأي غيره في النقد:

ومن منهج العسقلاني في النقد الاستشهاد برأي غيره في العمل الأدبي، فليس كل ما نجده في كتابه من آراء ونظرات نقدية من صنع العسقلاني، وإنما هي آراء لمن سبقه من النقاد، ويورد الباحث نماذج نقدية نقلها العسقلاني عن غيره:

---

(47) مقدمة في النقد الأدبي. د. علي جواد طاهر. ص342، بتصرف.

(48) النقد الأدبي الحديث. د. محمد غنيمي هلال. ص4، الناشر: نهضة مصر. ط2. القاهرة...

(49) جهود اللغويين البلاغية والنقدية في القرن الثالث الهجري. ص24 ـ 25. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية. ط1، 1990م..

1 ـ نقل العسقلاني رأي الصفدي في شعر عثمان بن علي بن عمر بن إسماعيل الحلبي: (قال: وهو شعر نازل متكلف جداً)[50].

2 ـ نقل العسقلاني رأي ابن الخطيب في شعر محمد بن أحمد بن شيرين الخذامي: (قال ابن الخطيب وله شعر مقبول فمنه):

ذرني فقد ساعد وقت وطاب إذا الأماني سمحت باقتراب

أبذل جهدي في طلاب العلا فباذل الجهد حميد المآب[51]

3 ـ استشهد العسقلاني برأي الصفدي في نقده شعر محمد بن أبي طالب الأنصاري: (قال الصفدي: وكان ينظم نظماً نازلاً، ومن شعره):

للنفس وجهان لا تنفك قابلة مما تقابل من عال ومستفل

كنحلة طرفاها في مقابلة فيها من اللسع ما فيها من العسل[52]

4 ـ نقل العسقلاني رأي الخطيب في شعر محمد بن علي بن هاني اللخمي: (قال ابن الخطيب: كان عالماً بالعربية كثير القناعة حافظاً لمروءته وصون ماء وجهه، متوسط النظم، وأنشد له، قال وهو حسن في معناه)[53]:

ما للنوى مدت لغير ضرورة ولقل ما عهدي بها مقصورة

إن الخليل وإن دعته ضرورة لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

5 ـ نقل العسقلاني رأي الصفدي في شعر صدر الدين محمد بن عمر بن مكي: (قال الصفدي: الجيد من شعره طبقة عليا، ويقع فيه اللحن الخفي مع مهارته في العربية)[54].

---

(50) الدرر الكامنة، ج2، ص444، تر: 2594.
(51) الدرر الكامنة، ج3، ص309، تر: 828.
(52) الدرر الكامنة، ج3، ص458، تر: 1234.
(53) الدرر الكامنة، ج4، ص123، تر: 318.
(54) الدرر الكامنة، ج4، ص217، تر: 585.

6 ـ استشهد العسقلاني برأي الذهبي في شعر ابن بناتا: (قال الذهبي في معجمه: أبو الفضائل جمال الدين صاحب النظم البديع وله مشاركة حسنة في فنون العلم وشعره في الذروة)[55].

7 ـ نقل العسقلاني رأي ابن الخطيب في شعر محمد بن محمد بن شعبة الغساني: (قال ابن الخطيب: وله شعر لطيف فمنه)[56]:

يبكي على مر الجديد من الهوى وهواك يا ليلى جديد باق

8 ـ استشهد العسقلاني برأي ابن رافع في شعر يحيى بن علي بن أبي الحسن: (قال ابن رافع: وكان ينظم نظماً وسطاً فمنه من أبيات)[57]:

أخجل النظم منك نظم وازري نثره الشهب من مقالك نثر

وإذا ما نظمت شعراً فللشعري احتشام منه وللشعر فخر

9 ـ نقل العسقلاني رأي الصفدي في شعر محمد بن مكرم بن أحمد الأنصاري: (قال الصفدي: هو معنى مطروق للقدماء لكن زاد فيه زيادة، وقوله ثقة بالعفو من أحسن متممات البلاغة، أما الأبيات الشعرية المنسوبة للأنصاري فهي)[58]:

الناس قد أثموا فينا بظنهم وصدقوا بالذي أدري وتدرينا

ماذا يضرك في تصديق قولهم بأن يحقق ما فينا يظنونا

حملي وحملك ذنبا واحداً ثقة بالعفو أجمل من إثم الورى فينا

10 ـ استشهد العسقلاني برأي البرزالي في شعر إبراهيم بن علي بن خليل:

---

(55) الدرر الكامنة، ج4، ص224، تر: 589.
(56) الدرر الكامنة، ج4، ص423، تر: 1171.
(57) الدرر الكامنة، ج3، ص309، تر: 828.
(58) الدرر الكامنة، ج4، ص263، تر: 725.

(ذكره البرزالي فقال: قد كان أمياً عامياً ولكنه لطيف النظم، ومن شعره)[59]:

يـا ذا الـذي فـاق الـغـصـون بـقـده وسـمـا بـطـلـعـتـه عـلـى قـمـر الـسـمـا

إن العسقلاني عندما ينقل رأي غيره في النقد ليس معنى ذلك أن نقده خال من العمق، فهذا شيء يستحيل على الباحث إثباته، لأنه بطبيعته حكم شخصي محض، ويزيد من تعذر الإثبات أن الباحث لا يملك نقداً يستحق أن يسمى بالعمق والقدرة على الغوص في خفايا النفس البشرية التي أصدرت هذا النتاج الأدبي سواء أكان شعراً، أم نثراً، أم نقداً. فالعسقلاني يعرض آراء نقدية في كتابه تسجيلاً لها ضمن اختياراته الأدبية لتراجم أعلام القرن الثامن الهجري.

مقاييسه النقدية

تختلف المقاييس النقدية من ناقد لآخر حسب ذوقه وثقافته، وإنه بالنظر في كتاب «الدرر الكامنة» يرى الباحث أن العسقلاني يحكم مقاييس معينة يتخذها أساساً للحكم على النص الأدبي في تراجمه، ويظهر للباحث أن الأسس المعتمدة لدى العسقلاني في نقده للنصوص الأدبية هي ما يلي:

أولاً: الأساس الانطباعي التأثري:

أي أثر النص في نفس المتلقي فيحكم له أو عليه مستمداً حكمه من ذوقه، ووفقاً لهذا المقياس نجد العسقلاني قد أشاد ببعض النماذج الشعرية واصفاً إياها بالحسن كما مر من أمثلة في معرض حديث الباحث عن الذاتية والموضوعية في نقد العسقلاني.

ومن النتاج الأدبي الذي اعتمد فيه العسقلاني مقياس الذوق، سلباً لا إيجاباً، وقدحاً لا مدحاً، تلك الأبيات التي يقدم الباحث جانباً منها:

---

(59) الدرر الكامنة، ج1، ص45، تر: 111.

1 ـ قال العسقلاني في تشريحه لأبيات علي بن عتيق بن عبد الرحمن الفاسي: (وله نظم نازل فمنه)[60]:

ما جاءك الوغد إلا رحت تكرمه وما أتيتك إلا كنت منحرفا

كذلك الكلب لم يعبأ بجوهرة ومن سجيته أن يأكل الجيفا

2 ـ قال العسقلاني ناقداً شعر أحمد بن عبد النور بن راشد: وله شعر وسط فمنه:

إذا ما رنا فاللحظ سهم مفوق وفي كل عضو من إصابته جرح

هو الزمن المأمول عند ابتهاجه فلمسته ليل وغرته صبح[61]

3 ـ قوله في نقد شعر عبد الرحمن بن علي بن المظفر الشافعي: (وهو نازل الطبقة)[62].

4 ـ قوله في نقد شعر محمد بن علي بن يحيى: (وكان له شعر نازل رحمه الله تعالى)[63].

5 ـ قوله في نقد النتاج الأدبي لمحمد بن مختار الحنفي: (وكان يحب الأدب وليس له فيه ذوق)[64].

6 ـ قوله في نقد شعر محمود بن أحمد بن ظهير: (وله شعر نازل)[65].

7 ـ قوله في نقد نظم موسى بن علي بن محمد: (وكان ينظم نظماً سافلاً عرياً من الإعراب على طريقة الصوفية، ومن شعره)[66]:

---

(60) الدرر الكامنة، ج3، ص81، تر: 169.
(61) الدرر الكامنة، ج1، ص194، تر: 499.
(62) الدرر الكامنة، ج2، ص337، تر: 233.
(63) الدرر الكامنة، ج4، ص98، تر: 359.
(64) الدرر الكامنة، ج4، ص254، تر: 700.
(65) الدرر الكامنة، ج4، ص322، تر: 879.
(66) الدرر الكامنة، ج4، ص376، تر: 1024.

تـشـفـع بـالـنـبـي فـكـل عـبـد يـجـار إذا تـشـفـع بـالـنـبـي
ولا تـجـزع إذا ضـاقـت أمـور فـكـم لله مـن لـطـف خـفـي

8 ـ قوله في نقد شعر عبد الله بن علي بن محمد بن سليمان: (وكان له نظم وسط فمنه قصيدة يتشوق أولها)[67]:

ذكرت قلبي حين شط مزارهم بهم فناب عن الهوى تذكارهم
وبكا فؤادي وهو منزل حبهم وأحق من يبكي الأحبة دارهم

إن هذه الأحكام النقدية الذاتية من العسقلاني لا تنقص من قيمة نقده وموضوعيتها لأن العسقلاني أديب، و(الأديب ناقد بطبعه، يحرص على تثقيف موهبته، وتنقية عمله، وهناك نماذج في أدبنا العربي وفي مقدمة أولئك زهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير، ومن سار على نهجهما)[68].

ثانياً: المقياس الديني والأخلاقي:

وهو مقياس يزن الشعر بمدى ارتباطه بالتعاليم التي جاء بها الإسلام ورسم لها الحدود الخلفية التي يتصف بها الفرد المسلم، ويتمسك بها في قوله وعمله. فينبغي أن يكون الشاعر ملتزماً، والتزام الشاعر يعني (وجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في القضايا الوطنية والإنسانية وفيما يعاني الآخرون من آلام ويبنون من آمال)[69].

فإذا جاء النتاج الأدبي مخالفاً لهذا الالتزام، فإنه يجد من العسقلاني القدح الذي يدل على غيرة شديدة على الدين والأخلاق، فغاية العسقلاني أن يكون الشعر مدعماً للأخلاق لا مدمراً لها. وحُقَّ للعسقلاني أن يعتمد هذا المقياس

(67) الدرر الكامنة، ج2، ص278، تر: 2181.
(68) متابعات في النقد الأدبي. د. عبد السلام بيومي عجلان. ص127. الناشر شباب الجامعة. الاسكندرية، 1986م..
(69) النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته. نجوى صابر. ص199. دار العلوم العربية، ط1، بيروت، 1990م.

أساساً في نقد النصوص الأدبية، (فالفن العالي ليس ذلك الفن الذي يثير في النفوس أحر المشاعر وأعنفها فحسب، وإنما هو ذلك الذي يثير فيها أكرم المشاعر وأنبلها)[70].

ماذا نصنع بأدب منحل خلقياً، ونحن نريد إرساء قواعد صحيحة لمجتمع مسلم؟ وأي فائدة ترجى منه، وقد عزم على تحطيم كل قائم وهدم كل صالح؟ ومن هنا نرى العسقلاني يقدح في من يخرج بشعره عن قواعد الدين، وفيما يلي نمادج نقدية لنصوص أدبية كان الدين والأخلاق مقياساً لتقويمها:

1 ـ نقد العسقلاني شعر حسين بن محمد بن هبة الله طاعناً في تبذله واقترافه الموبقات، فقال عنه: وكان شاعراً ماجناً كثير الهجاء. ومن نظمه في واقعة جرت له:

سبت فؤادي المعنى من تثنيها فتانة كل حسن مجمع فيها
إنسية مثل شمس الأفق قد برعت وحشية في نفور خوف واشيها[71]

2 ـ قوله في نقد شعر سليمان بن داود بن يعقوب: (وله أشياء كثيرة في المجون)[72] أعرض العسقلاني عن تدوينها في كتابه.

3 ـ قوله ناقداً شعر شرف بن أسد المصري لاشتماله على مضامين تعارض الدين والأخلاق فقال عنه: (وسلك في المجون مسالك لم يسبق إليها)[73].

4 ـ قوله في نقد شعر عبد الوهاب المصري الفخري: (وكان صاحب نوادر ومجون وسلك طريقة ابن حجاج في الشعر السخيف)[74]. فالملاحظ هنا

---

(70) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد. د. عبد الرحمن رأفت الباشا. ص163، دار الأدب الإسلامي. قبرص. (د.ت).
(71) الدرر الكامنة، ج2، ص43 ـ 44، تر: 1516.
(72) الدرر الكامنة، ج2، ص150، تر: 1840.
(73) الدرر الكامنة، ج2، ص188، تر: 1930.
(74) الدرر الكامنة، ج2، ص432، تر: 2555.

ـ أيضاً ـ أن نقد العسقلاني لهذا الشعر كان يقوم أساساً على مقاييس دينية وأخلاقية.

5 ـ نقد العسقلاني شعر محمد بن تميم الاسكندراني، قال في واقعة حضرها أحد جلساء الاسكندراني، وفيما يلي رواية العسقلاني للواقعة ونقده لما قيل فيها من شعر خارج عن الدين والأخلاق(قال التاج عبد الباقي كنت معه على باب البحر بعدن فمر خادم هندي اسمه جوهر فذكر أنه أنشد في نظيره وهو بالهند فذكر أبياتاً فيها مجون)[75]، وأضرب العسقلاني عن سوق هذه الأبيات ضمن اختياراته الأدبية التزاماً بمقياس الدين والأخلاق في نقده للنصوص الأدبية.

6 ـ نقد العسقلاني شعر محمد بن مختار الحنفي فقال: وكان يميل إلى رأي الفلاسفة وفيه يقول العسجدي من قصيدة أولها:

ليس ابن مختار في كفر بمختار وإنما كفره تقليد كفار[76]

والظاهرة المطردة عند العسقلاني ـ غالباً ـ هي إعراضه عن تسجيل الشعر القبيح، ويكتفي بالقول إن شعر فلان يوصف بالمجون والسخف دون ذكر نمادج منه.

ثالثاً: مقياس عصره:

وبجانب المقياسين السابقين في نقد العسقلاني للنصوص الأدبية، نجده يعتمد مقياس عصره القائم على الصنعة البديعية، فللعسقلاني نظرات استمدت روحها ممن سبقوه إلى هذا المضمار في العصر المملوكي، فالعسقلاني ولوع بالمعاني البديعية الرائعة البعيدة عن التكلف، وقد ظهرت البديعيات عبر ديوانه الشعري المعروف، ولا شك أن (النقاد يعبرون عن مزاج جيلهم وذوق

(75) الدرر الكامنة، ج3، ص412، تر: 1095.

(76) الدرر الكامنة، ج4، ص254، تر: 700.

معاصريهم وحاجة جمهورهم، ويجتهد الأدباء كتاباً وشعراء في تحري أذواق النقاد، لذا يقال: إن النقاد موجهو الأدب في الأمة وهداته:[77].

ومن الحقائق المسلم بها أن أدب كل أمة هو ابن بيئتها الطبيعية والاجتماعية، ويسوق الباحث نماذج لنصوص أدبية نقدها العسقلاني بمقياس عصره:

1 ـ قوله في نقد النتاج الأدبي لأحمد بن بيليك المحسني: (وتعاطى نظم التنبيه فنظمه قصيدة بديعة على روي الشاطبية... وجاء نظماً رائقاً)[78].

2 ـ قوله في نقد شعر أحمد بن محمد بن علي الدنيسري: تولع بالأدب ونظم الشعر فأكثر وأجاد في بعض المقاطيع، وكان يمدح الأكابر، وينظم في الوقائع، وله بديعة على طريقة الحلي، ولم يكن ماهراً في العربية، وهوالقائل بعد أن كتب وضعف بصره:

أتى بعد الصبا شيبي ودهري رمى بعد اعتدال باعوجاج

كفى أن كان لي بصر حديد وقد صارت عيوني من زجاج[79]

فمن الملاحظ أن العسقلاني في نقده أشار إلى استعمال البديع، وهو سمة غالبة على النتاج الأدبي في العصر المملوكي، ويزن به النقاد الأعمال الأدبية ضمن مقياس العصر.

3 ـ قوله في نقد شعر عبد الرحمن بن عبد الرازق بن إبراهيم بن مكانس:

نظم على الطريقة النباتية فأجاد مع قصور بين في العربية، لكنه كان قوي الذهن، حسن الذوق، حاد النادرة، يتوقد ذكاء... اجتمعت به غير مرة وسمعت منه شيئاً من الشعر، وهو القائل:

---

(77) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. د. محمود رزق سليم. مج6، ص114.
(78) الدرر الكامنة، ج1، ص116، تر: 322.
(79) الدرر الكامنة، ج1، ص287، تر: 732.

علقتها معشوقة خالها قد عمها بالحسن بل خصصا

يا وصلي الغالي ويا جسمها لله ما أغلى وما أرخصا[80]

ذكر العسقلاني الطريقة النباتية وهي فن أدبي معروف نهج مسلك المحسنات البديعية في عصره، فصار مقياساً نقدياً لنقاد الشعر والنثر في العصر المملوكي.

4 ـ نقد العسقلاني شعر علي بن الحسين بن علي بن أبي بكر عز الدين الموصلي، ولكنه نقد إيجابي، حيث أشاد بالشاعر قائلاً: (الشاعر المشهور، مهر في النظم... وجمع ديوان شعره في مجلد، وله البديعية المشهورة قصيدة نبوية عارض بها بديعية الصفي الحلي وزاد عليه أن التزم أن يودع كل بيت اسم النوع البديعي بطريق التورية أو الاستخدام، وله أخرى لامية على وزن بانت سعاد)[81].

5 ـ قوله في نقد النتاج الأدبي لمحمد بن تميم الاسكندراني، وعمل مقامات جيدة، وكان يسميها تواضعاً القمامات ومن نظمه:

أتذكر ليلى عهدنا المتقدما أم البين أنساها عهوداً على الحمى[82]

وصف العسقلاني القصيدة بأنها جيدة، وفن المقامات ظهر على يد الحريري فسار بعض الأدباء على نهجها وخاصة في عصر المماليك.

أما عن المقامات فهي «جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها.

وأول من فتح باب عمل المقامات البديع الهمذاني: فعمل مقاماته

---

(80) الدرر الكامنة، ج2، ص331، تر: 2304.
(81) الدرر الكامنة، ج3، ص43، تر: 99.
(82) الدرر الكامنة، ج3، ص412، تر: 1095.

المشهورة المنسوبة إليه. وهي في غاية من البلاغة، وعلو الرتبة في الصنعة، ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري فعمل مقاماته الخمسين المشهورة، فجاءت نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الحظ، وأقبل عليها الخاص والعام، حتى أنست مقامات البديع، وصيرتها كالمرفوضة»[83].

6 ـ قوله في نقد شعر يوسف بن عبد الغالب بن هلال: كان عامياً إلا أنه جيد النظم كقوله في الجناس التام:

كم قلت للحائك الظريف وفي راحته طاقة يخلصها

هل لك في رد مهجة لفتى ليس له طاقة يخلصها[84]

والجناس التام لون من المحسنات البديعية، ولع الأدباء به كما ولعوا بغيره من المحسنات في عصر المماليك، ولكن العسقلاني نظر إلى الشعراء من زاوية الإبداع في شعرهم وبقيمه الخالدة، وتلك مقاييس نقدية اتكأ عليها العسقلاني في نقده لأدباء عصره كما رآها الباحث بجهده المقل، والله أعلم بالصواب.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الشيقة مع الجهود النقدية للعسقلاني عبر كتابه«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» يجمل بالباحث وهو يضع اللمسات الأخيرة لبحثه أن يتوقف فيبدي أهم الانطباعات والنتائج التي خرج بها وهي ما يلي:

1 ـ كان العسقلاني ناقداً منطلقاً من الملكة الصافية والنظر الثاقب في التمييز بين مراتب الكلام، على الرغم من عدم وجود نظرية نقدية واضحة المعالم لديه، ولكنه شارك في الاختيارات الأدبية وعلق أحياناً بروح

(83) صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. ج14، ص110. مطابع كوستا توماس وشركاه. مصر.

(84) الدرر الكامنة. ج4، ص462، تر: 1264.

النقد، وإن كان نقده يتسم بالذاتية في ظاهره، وقد يقيس بمقاييس دينية وأخلاقية، أو بمقياس عصره في النقد فيعلل أحكامه على النص الأدبي.

2 ـ إن عناية العسقلاني بشعر تراجمه أتاحت لشعرهم فرصة الذيوع والانتشار مما ينسجم والقيمة الفنية لهذا الشعر، علاوة على أن كتاب (الدرر الكامنة) ثبت في نسبة الأشعار إلى أصحابها، خاصة وأنه انفرد بذكر أشعار لم ترد في غيره من المصادر لأعلام هذا القرن.

3 ـ لم يحفل ابن حجر بالاختيارات النثرية في تراجمه، لضعف الكتابة في عصر المماليك عامة، فقد انحصر النثر الفني في الكتابة الديوانية التي طغت عليها حمى السجع والبديع، ولقد كان القلقشندي أصرح في كتابه[85] إذ بين سبب ضعف الكتابة.

لقد ذبلت الروح الفنية للنثر، فصار ضعيفاً، لشغف الكتاب بتزيين الألفاظ وانصرافهم عن العناية بالمعاني والأفكار.

4 ـ لم يكن العصر المملوكي عصر تخلف عقلي أو وجداني، وبعبارة أخرى لم يكن عصر انحطاط علمي أو أدبي كما قد يظن، فقد شهد هذا العصر نشاطاً ثقافياً رائعاً، وبحسبه أنه كان الوعاء الذي وسع تأليف أكثر الموسوعات والمراجع في مختلف العلوم والفنون.

ويوصي الباحث بضرورة النظر في الحكم الذي وصف به نتاج عصر المماليك بالضعف والانحطاط، فهذا الحكم صادر عن بعض المستشرقين الذين ساءهم أن تكون عهود هذا العصر صخرة صلداء في وجه الصليبيين، فالحكم على هذا العصر بالانحطاط والضعف فيه كثير من الظلم والإجحاف، ولو نظروا إلى أدب هذا العصر نظرة موضوعية لانتهوا إلى ما لا بد أن ينتهي إليه أي باحث عن الحقيقة.

---

(85) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج1، ص49.

إنني أدعو الباحثين العرب والمسلمين إلى أن يُنْقِذُوا المخطوطات العربية والتراث العربي الإسلامي من أيدي المستشرقين (الذين يتولون مهمة البحث والتنقيب، والفهرسة والنشر للعديد من المخطوطات العربية)[86]، ولا شك أنهم يدسون السم في كتاباتهم حولها ويلقنون تلاميذهم أفكارهم للتشكيك نيابة عنهم في هذا التراث الخالد.

هذا هو العسقلاني الذي لا يستطيع أحد أن ينكر فضله أو يسلبه حقه كعالم موسوعي ضرب بسهم وافر في شتى مجالات المعرفة، وكرس حياته من أجل رسالة نبيلة، فكان محل تقدير العلماء والمؤرخين، وسيبقى فضله علينا طوقاً في أعناقنا وأعناق الأجيال القادمة.

وهكذا عمل الباحث جاهداً على اعتصار هذا السفر الجليل بقدر ما لان عوده، ومُخِضَتْ مادته فجادت بمنهج مصنفه، وبذا تحدد المنهج النقدي عند العسقلاني واضح المعاني مجلوّ القسمات.

ويتوخى الباحث بهذا البحث أن يكون قد فتح نافذة جديدة أمام الباحثين والدارسين ليطلعوا من خلالها على جهود العسقلاني في مجال النقد الأدبي.

وبعد..

فإن هذا البحث لم يقل الكلمة الأخيرة في هذا المجال، لكنه حاول ارتياد الآفاق، كما يمكن تنميته والنظر فيه من أبعاد أخرى، وتلك سمة البحث العلمي دائماً، فإن فوق كل ذي علم من هو أعلى منه.

---

(86) صحيفة الدعوة الإسلامية. العدد 676، ص4 ـ ليبيا 1997م. مقال بعنوان: قراءة ثانية في كتاب فهرس مخطوطات الطب الإسلامي. د. عبد الكريم أبو شويرب.

مصادر البحث ومراجعه

- الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق (علي البيجاري ـ الناشر: دار الكتب العلمية / ط1 ـ سنة 1995 بيروت.
- جهود اللغويين البلاغية والنقدية في القرن الثالث الهجري ـ د. عبد الواحد حسن الشيخ ـ الناشر: دار المعرفة الجامعية / ط1 سنة 1990 الإسكندرية.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ أحمد بن حجر العسقلاني ـ تحقيق/ محمد سيد جاد الحق ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ لأبي العباد أحمد القلقشندي ـ الناشر: دار الكتب بيروت.
- صحيفة الدعوة الإسلامية العدد 676 سنة 1997 ليبيا.
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ـ د. محمود رزق سليم ـ الناشر: مكتبة الأدب بالجماميز / ط1 سنة 1951 القاهرة.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ تأليف / مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة ـ الناشر: دار الفكر، بيروت.
- متابعات في النقد الأدبي ـ د. عبد السلام بيومي عجلان ـ الناشر: مؤسسة شباب الجامعة/ ط1 سنة 1986 الإسكندرية.
- مقدمة في النقد الأدبي ـ د. علي جواد الطاهر ـ الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ط1 سنة 1979 بيروت.
- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ـ د. عبد الرحمن رأفت الباشا ـ الناشر: دار الأدب الإسلامي، قبرص.
- النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته ـ د. نجوى صابر ـ الناشر: دار العلوم العربية / ط1 سنة 1990 بيروت.
- النقد الأدبي الحديث ـ د. محمد غنيمي هلال ـ الناشر: دارنهضة مصر / ط2 سنة 1973 القاهرة.
- النقد المنهجي عند العرب ـ محمد مندور ـ الناشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر ط 1972 القاهرة.